كـلـمـة افـتـتـاحـيـة

الدكتور **محمـد خـان**
عميد كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على الرسول الأمين

الأستاذ رئيس الجامعة،

الأستاذ رئيس القسم،

السادة المحاضرون والمشاركون،

إخواني الطلبة الأعزاء،

هذا الملتقى الوطني «**السيمياء والنص الأدبي**» هو الأول الذي ينظمه قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، على الرغم من حداثته في جامعة محمد خيضر ببسكرة؛ ولما يبلغ سنته الرابعة بعد. وحداثة ميلاده لم تثن عزيمته، أو تصرفه عن طموحه. فكانت رغبة أساتذته، وحاجة طلابه أن يخوض تجربة الملتقى العلمي الذي يجمعنا اليوم، وكل أملنا أن تكلل أعماله بالنجاح. وما كان ليكون على هذه الصورة لولا تضافر جهود العاملين بهذه الجامعة وفي طليعتهم رئيسها ومساعدوه، وجهود كل المتعاونين من خارجها ومن كل المؤسسات.

إلى كل هؤلاء وأولئك نقدم جزيل شكرنا، وعظيم تقديرنا. وما نجاح هذا الملتقى إلا بفضل الأساتذة المحاضرين والمشاركين. فهم الذين استجابوا لمحاور الملتقى، وأصرّوا على الحضور، فتحملوا وعثاء السفر، وعناء الرحلة من اجل أن يشاركوا بمحاضراتهم في رحاب هذا الملتقى، راجين أن يحظوا بطيب المقام بيننا، سائلين المولى سبحانه أن يجعل أفودة منهم تهوى هذه البلدة الطيبة، هذه المدينة المضياف.

لماذا السيمياء والأدب؟

لقد درج الأوربيون على استعمال مصطلح (*La sémiologie*) منذ سوسير (1913)، واختار الأمريكان استعمال مصطلح (*La sémiotique*). وتداخل المصطلحات ردحا من الزمن، ثم كان التفريق بينهما بحيث صار الأول لكل أنظمة العلامات، واختص الثاني بالعلامات اللسانية. وكلاهما مأخوذ من اللفظ اليوناني (*Sémion*) بمعنى العلامة. وجاء في معجم تودوروف (*Todorove*) وديكرو (*Dicro*) ما يلي: *« La sémiotique (ou Sémiologie) est la science des signes p.113 »*

وجاء في الفصيح من لغة العرب لفظ السيما، والسيمياء كذلك، وهو من الوسم والسمة بمعنى العلامة. فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ تعرفهم بسيماهم﴾ (البقرة 273) أي بعلامات دالة على الفقراء. وكذلك في الأعراف (46-48) ومحمد (30) والفتح (29) والرحمن (41)...

هكذا يلتقي اللفظ اليوناني باللفظ العربي في الأصوات الصحيحة (س-م)، ويختلفان في أصوات العلة (الصائتة)، فلكل لغة حشوها. ولا غرابة في ذلك فلعل إحدى اللغتين أخذت من الأخرى، أو أخذتا معا من لغة واحدة زالت من الوجود. فأصل اللغات واحد؛ لأن اصل الإنسان واحد.

إن اختيارنا لمصطلح «**السيمياء**» له ما يبرره، فهو لفظ عربي فصيح، ومعناه العلامة، وهو المقصود من هذا العلم، فعلم السيمياء هو علم العلامات. وإذا كان هذا اللفظ استخدم في تراثنا بمعنى علم أسرار الحروف أو غيرها فلا يخرجه من مجال دراسة العلامات. ولا مشاحة في المصطلح.

وعلى كل حال فهو أقرب إلى الأصل العربي من استعمالنا لكلمة سيميولوجيا أو جغرافيا أو فيزياء أو بيولوجيا...بحيث تنوسي أصلها، وصارت كأنها عربية.

إن السيمياء هي العلم الذي يدرس جميع العلامات مهما يكن مصدرها في إطار الحياة الاجتماعية بوصفها أحد أركان التواصل بين بني الإنسان، وكذلك بين الإنسان وخالقه في الشعائر وسائر العبادات. فهي المحاولة الدائمة لتفسير العلاقات بين الموجودات وتسخير نتائجها لخدمة الإنسان. فالعلاقات كثيرة جدا، منها الإشارات والإيماءات التي تصاحب الكلام للتعبير عن الفرح أو الغضب أو الترحيب أو الرفض، ومنها إشارات المرور، والتجارة، والشعارات، والأزياء، والأوسمة والألوان وغيرها...

والعلامات في حقيقتها مرهونة دلالتها بالثقافات التي أوجدتها، وبالمجتمعات التي تستعملها، فمنها ما يعتبر اللون الأسود للحزن، والأبيض للفرح، والأزرق للولد والوردي للبنت. كما يعتبر الميزان رمزا للعدالة، والهلال الأحمر للإسعاف عند المسلمين، والصليب عند غيرهم، ناهيك عما تتفنن فيه وسائل الدعاية والإشهار.

عرفت السيمياء قديما في مجال الطب منذ 1752، وذلك بدراسة علامات المرض وأعراضه الجسدية واللفظية، كما عرفت عند العلماء التوحيد والمتصوفة من المسلمين. وما الرياضيات إلا تجريد لرموز سيميائية، وتفسير الأحلام ضرب منه.

وقد جعلها رولان بارت (*R.Barthes*) جزءا من اللسانيات مخالفا بهذا سوسير (*F. De-Saussure*) أما الفيلسوف الأمريكي بيرس (*C. Peirce*) فلا يراها محصورة في العلوم الإنسانية، بل يعتقد أنها شاملة للعلوم الإنسانية والطبيعية...

فأن يحدّث الإنسان غيره، أو يشير إليه، أو يكتب له، أو يرسم فإنما يريد أن يبلغه معنى، وإذا عجز عن إدراكه استعان بغيره. وما المعنى في النهاية إلى حصيلة تفسير علامة بعلامة أخرى من نوعها أو من غيرها، وقد تتعدد الاحتمالات، وتتفرع الدلالات فتحتاج إلى دراسة وتحليل.

السيمياء مشروع قراءة متجددة، وممارسة متواصلة. إنها هاجس معرفي يطمح إلى تفاعل الحقول المعرفية بنيّة تكاملها من أجل تفسير الوجود، فهي رفض لهيمنة المعرفة المتخصصة التي جعلت الفرد المتخصص ضئيلا أمام المعارف الأخرى، وكادت تفصل الإنسان عن الآخر، فتقيم بينهما الحواجز المعرفية، وتؤدي في نهاية الأمر إلى طغيان علم على آخر، وسيطرة إنسان على آخر.

وإذا كان الأدب فنا جميلا، فإنه نظام سيميائي يخفي أسراره على المتلقي المتخصص بله العادي. والعلامة فيه هي الكلمة التي تتحدد دلالتها من منطلق الثقافة التي أنتجتها. كأن يقال فرخ في شرق الجزائر ولا يقال ذلك في غربها. ولك أن تقول في الوسط الثقافي «أنت باسل» ولا يستساغ أن يقال هذا في الوسط الشعبي. قال تعالى: ﴿يا أيها اللذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا﴾ (البقرة 104)، هكذا كان النهي عن لفظ (راعنا) حتى لا يتوهم أنه (راعنا) بمعنى الصفة القبيحة.

قال الحطيئة في الزبرقان بن بدر، وهو من أعيان قومه:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد، فأنت الطاعم الكاسي

فشكاه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي كان يظن أنه قد مدحه، وعندما سأل حسان بن ثابت قال: «لم يترك له مكرمة. فقد جعله مطعوما في بيته مكسوا من غيره».

وهكذا اللغة هي النظام الوحيد الذي يمكن أن يتحدث عن نفسه، كما يتحدث عن غيره، فما من نظام سيميائي إلا ويحتاج إلى اللغة لتبليغ رسالته.

إن معنى الكلام بنيّة القائل، والقارئ يجعل من علاماته ميدانا ثرّا يجول في بحاره، باحثا عن جواهره، يستخرجها ناصعة تسرّ السامعين وكل المشاركين. وهذا من أهداف ملتقانا. راجيا له النجاح والذكر الحَسن، والصدى الطيب، مجددا ترحيبي بكم. والملتقى ملتقاكم. شكرا للجميع طاب يومكم. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.